النهار
اللبنانية
١٩٨٢

سلطان باشا الاطرش: جبل من الجبل

حين هدأ قلب سلطان باشا الاطرش انطفأت منارة على الجبل. وحين اعلن نبأ وفاته مال الكثيرون الى عدم التصديق. ربما لانهم في هذا الزمن المجدب يتمسكون في شراسة بالرموز. الرموز التي تمضي وتحضن. التي تمس الذاكرة والقلب معا. التي تعلم الحقيقة والامل في الوقت ذاته. وربما لانهم لا يريدون لبطل ان يموت على فراشه. كأنهم يحتجون على نجاح المرض حيث فشل الرصاص وعجزت المعارك.

تعب الجسد. كيف انهكته حروب طويلة ومواقف ناصعة. من حقه ان يتعب وان يخلد الى الراحة. اذ ليس أشقى على الجسد من الهمم الكبيرة. فهي ترهقه اذ تكرهه على السير معها. ولا تغفر له تعبه أو توانيه.

من حقه ان يتعب. فهو سبق القرن الى الولادة. ومنذ نعومة اظفاره لم يتنكر لقدره. انغرس في بيئته. ورث فيها واعالة وشجاعة مشفوعة بالنبل. وككل الفرسان المنذورين لاعمال كبرى زاده الوهج تواضعا وأنفة. لو كان همه اقتناص الجاه لما كان تعب في السير اليه. كانت له هموم أخرى. فقد كان يهجس بكرامة الارض وكرامة الانسان معا. فما فرط في حبة تراب ولا قبل صداقة ظالم. ولانه ربط مصيره بمصير الحرية والكرامة لارضه وساكنيها كان عليه ان يعيش كل الذي عاشه.

كان في مطلع شبابه حين رافق والده لمواجهة حملة سامي باشا الفاروقي. فالسلطة العثمانية كانت لا تنفك تحاول اخضاع الجبل. وكان على الوالد ان يدفع الثمن فاعدم بسبب مقاومته للعثماني المحتل. على يد سلطان باشا الاطرش تحول الجبل الى قلعة لا تستكين ولا تهادن محتلا. وكان لمواقفه الفضل في بث نار الثورة في السكان. كان قدوة لم يشد عن عزمه ضعف الامكانات. وكأنما حاول ان يعوض ذلك بصلابة المواقف واتخاذ قرار الموت الذي هو بالفعل قرار الحياة.

لا يمكن كتابة تاريخ منطقتنا في هذا القرن من دون التوقف طويلا عند سيرته. فيها محطات مضيئة. أعلى مناراتها القول انها مدرسة يحسن الرجوع اليها. فلا يمكن الكلام على الثورة العربية الكبرى من دون قراءة دوره فيها. فهي سميت ايضا ثورة سلطان باشا الاطرش. وكبيرا كان حين ينتصر. ولم تكن الشدائد تهد عزيمته أو تجعله يلين. صلب وصامد وصبور. وكما كل الكبار يترفع عن الاذية واقتناص الفرص والتسلق على دم الآخرين. كل هذه الصفات كرسته قائدا. فبدل ان يرسل الناس الى المعارك كان يقودهم اليها. وبدل ان يدفعوا الاذى عنه كان يدفعه عنهم. معاركه ضد الانتداب الفرنسي لم تنسها الكتب. لكن ضمير الناس حفظها ونقلها الى الاجيال الجديدة لتشب في رحاب مدرسة سلطان باشا الوطنية. الفرنسيون أصدروا في حقه احكاما عدة بالاعدام. لم يقنعه ذلك بالمهادنة. فلو كان يخشى الاعدام لما أضرم النار واستحال رمزا في سوريا ولبنان وفلسطين.

يغيب سلطان باشا الاطرش في مرحلة دقيقة من تاريخ المنطقة. مرحلة الالام والتمزق. لكنه قبل ان يغمض عينيه للمرة الاخيرة شهد دروز الجولان يقاومون المحتل الاسرائيلي ويتعلقون بالهوية والارض. رمز أبدي تغذيه عنادهم وقبل أيام من غيابه اندلعت انتفاضة الضفة كأنها تذكر ان مدرسة مقاومي المحتل لا تزال تنجب. وربما هذا بعض ما يعزي رجلا كان كجبل في الجبل.

حين تغيب الرموز يصبح من الواجب اضاءة كل جوانب سيرتها. فتاريخنا كتب خطأ بعض الاحيان. وكتب على عجل أحيانا أخرى. واليوم في ظل تمزق الارادات وتزايد الهجمات يحسن العودة الى المدارس والمنارات. تحية وداع يا سلطان باشا الاطرش. تحية وداع ولقاء وبقاء. فأنت بيننا من قديم الزمان والى الزمان الباقي. فقد تقمصت كل فرد من هذه الامة وتقمصتك هي. حتى لكأننا ونحن نودعك نودع بعضا منا بينما انت باق كلك معنا وبيننا. لقد تردد الموت طويلا قبل ان يستعطف مذكرة الجبل. وأخيرا استأذنك للدخول. فسمحت له. ورافقته راضيا مرضيا. تحية وداع ايها الجبل الذي كان، وسيبقى، جبلا في الجبل ومن الجبل.

ميشال ابو جوده